

# الأديب و المَفَكَّرُ الرَّاحِلُ رَمَضانُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَدَ



بين يدي روزنامة عام



1961



بين يدي روزنامة عام 1961

.....

قد تعجبون أيها القراء الكرام حين تعلمون أنّ موضوعي في هذا اليوم هو "الروزنامة"..  
والروزنامة كما تعلمون هي جدول أيام السنة بكاملها ابتداءً من واحد كانون الثاني إلى الواحد والثلاثين من  
كانون الأول.

أما الروزنامة التي أفق أمامها الآن فهي روزنامة عام 1961، وهي شبيهة بكل روزنامة أخرى من حيث أنّها  
تعداد للأيام لا تحمل معنى خاصاً ولا تشير إلى غاية مميزة.

ومع ذلك فقد وجدتني أمام الروزنامة على غير ما عهدت نفسي عليه.. وجدتني أمام دفع عجيب من  
الذكريات والصور والخيالات الخاصة.

السبب في ذلك أنّ رسوماً فنية لأزهار طبيعية نادرة تتخلل أوراق الروزنامة..

وتصفحت أوراق الروزنامة فإذا بي أجد بين الواحدة والأخرى رسوماً أخرى لهذه الأزهار حتى أتيت على أوراق  
الروزنامة كلها فلم تطالعني خلال جداول الأيام والأسابيع والشهر غير هذه الأزهار بالذات..

وإذا علمتم أنّ هذه الروزنامة التي تحليها الأزهار الطبيعية النادرة هي من صنع شركة يابانية أدركتم من خلالها  
النفسية الخاصة التي يتمتع بها شعب هذه البلاد النائية الذي لا تصله بنا غير صلات واهية باهتة.

والواقع أنّني لم أتشوق لزيارة بلد من البلدان تشوقي لزيارة الجزر اليابانية حين وقعت عيناى على هذه الروزنامة  
بأزهارها الحلوة من زهرة الغاردينيا إلى زهرة الكاميليا إلى زهرة السلطان الكبير وغيرها.

وقد قرأت في كل زهرة معنى من المعاني الإنسانية التي يطمح الفنانون والأدباء إلى تصويرها في عباراتهم أو  
الحائهم أو رسومهم الفنية.

الزهرة الأولى هي زهرة الكاميليا اليابانية رسمتها يد فنان لا أعرفه ولم يذكر اسمه في الروزنامة. ولكنّ هذه الزهرة  
تتميز باللون الأحمر الداكن والممتزج بلون ليلكي باهت خفيف تتخلله موجة من النور ومن حولها أوراق خضراء

شديدة الخضرة بحيث تبدو أمام الناظر فتنة فيها كل معاني الفتون والاغراء الخاليين من قسوة الشهوات وشدة النزوات الفاضحة..

لقد خيّل إليّ وأنا أنظر إلى الزهرة المرسومة وكأني أستمع إلى لحن الدانوب الأزرق وشعرت وكأنّ دنيا من الأحلام الفاترة تحيط بي ثم ترفعني بخفة لم أعهد لها في حياتي من قبل..

لقد كنت حقاً في حلم وردي ليلكي تغمره موجة من النور الهاديء الذي يحمل كل معاني الحياة دون أن تكون فيه حرارة الاحتراق المؤلم ولدعات الحياة التي يلتهمها الموت..

أمام هذه الزهرة لا يحس الناظر أنّ في الدنيا شيئاً اسمه النهاية أو العدم أو الموت.. أنّ فيها وحيّاً مستمراً تحوطه عناية إلهية رقيقة دافقة بالدفء ناضجة بالصحة متفتحة ببسمات مفرحة سعيدة..

الكاميليا اليابانية التي شاهدتها في الروزنامة هي لمسة من لمسات الجمال اللانهائي الذي ينعم به عشاقه والعارفون بأسراره والغارقون في لحجة ذات الشفوف البراق والالتماع الحائر..

وأفتح صفحة أخرى في الروزنامة لأجد أمامي لوحة فنية أخرى فيها لون آخر من ألوان الزهور.. إنّه زهرة كاميليا جديدة ولكنها زهرة فارقتها حمرة الدم القاني وليلكية اللون الباهت لتحل محلها نصاعة خاصة يخيل للناظر معها وكأنّها كتلة غارقة في النور..

النور في هذه الزهرة يأتيها من اليمين واليسار من فوق ومن تحت يغمرها ويغسلها كلها فيحس معها الناظر وكأنّ كل ذرة من ذراتها قد تحولت إلى نور دافق ناصع ببياضه إنّها حلم آخر ولكنه حلم الفتاة والشباب، حلم تبدو به الدنيا سعيدة أسعد ما تكون، زاهية أزهى ما تكون، رائعة أروع ما تكون.. في كل ذرة من ذراتها نداء شاب..

وفي كل دفقة من دفقات نورها حياة تتجدد..

أما الأوراق الخضراء التي تحيط بهذه الفتنة الشابة فهي تبدو وكأنّها صينية سماوية فائقة اللون، بارعة العطاء، مسنونة الأطراف وكأنّها تريد أن تمتد إلى اللانهائية لتضم هذه اللانهائية بكل ما فيها من قيم الجمال والظرف والحب حول البتلات المنورة التي هي زهرة الكاميليا..

لم يعد لحن الدانوب الأزرق في سمع خيالي ولم تعد ألوانه المبهجة في نظر هذا الخيال.

لقد اختفى هذا اللحن الراقص في نصف إغماضة وإغفاءة ليحل محله لحن راقص آخر ولكنه أكثر خفة وأشدّ مضاء وأقوى حركة وأكثر شباباً..

في هذا اللحن ضحكات فتیان راقصین وفتیات راقصات.. وفي هذا اللحن صخب العيد بكل ما اختلط فيه من براءة الطفولة وحيوية المراهقة، وحب الحياة القوية الناشطة.. وفي هذا اللحن أخيراً تتمتات حبيب، وهمسات متيم، لا تخلو من شهوات فيها حرقة الرغبة في الاتصال، ونزوات الطموح إلى اشتياق الحبيب..

زهرة الكاميليا هذه هي اللوحة الفنية الثانية التي رأيتها في روزنامة عام 1961..

وتمضي أصابعي في تصفح أوراق الروزنامة فإذا بي أجد نفسي أمام زهرة ثالثة إنَّها زهرة السلطان الكبير وهي من فئة الكاميليا ولكنها نوع آخر من أنواعها ودفقة جديدة من دفقات إبداعها الجمالي.

ولكن زهرة السلطان الكبير تتميز بالهدوء والعمق باللون الأحمر القاني الذي فارقتة موجة النور الناصع أو الهاديء.. إنَّ في حمرتها القانية رصانة السلطان، وعمق التجربة، ومأساة الألم، ولا مبالة الشيخوخة..

في تلك الحمرة دنيا غنية بالتأملات ولكنها تأملات فارقتها سطحية الفتاة والشباب، واتصلت بها أعماق الحياة في أبعد أغوارها المؤمنة بعظمة الوجود وقوته وغموض أسرارها..

ومن الطبيعي أن يغيب اللحن الفتي الراقص الذي سمعته بأذن خيالي ورأيته بعين خيالي في الزهرة الثانية.

من الطبيعي جداً أن يغيب هذا اللحن ليحل محله لحن آخر فيه حظ كبير من رصانة الفيلسوف، والخوف الغامض الذي يحس به من يواجه الحياة بكل ما فيها من أسرار ومفاجآت...

فلم أعد أشاهد خطوات الراقصين، ولم أعد أتبين ابتساماتهم وضحكاتهم.. لقد غارت كلها ليحل محلها صمت هو أشد بلاغة من ضحكات شباب العالم كله وابتسامات أطفاله البريئة..

إنَّه صمت الايمان.. صمت الأبدية الجبارة.. صمت البقاء السرمدي..

وتتابعت الصفحات أمامي.. وتلاحقت معها الأزهار بين الصفحة والصفحة لأقرأ في كل منها قصة من قصص الإبداع الطبيعي الذي تتم به تمثيلة الوجود مشاهد وفضولاً، كنت أحس وكأني ألعق دموع الباكين، وأشم عبير السعداء.. وأتلمس مواطن أسرار الشيخوخة..

كنت أحس وكأني دنيا الإنسان قد اجتمعت بكل متناقضاتها في تلك الزهرات.. لكأنَّ الروزنامة التي تعد لنا الأيام قد رغبت أن تعد لنا فنون مشاعرنا وعواطفنا وأفكارنا بأجمل ما تعطيه الطبيعة للإنسان.. وهل أروع من الزهر عطاء يمنحه هذا الإنسان ليجد فهي صورة ناطقة لمراحل حياته؟

لقد كشفت لي هذه الروزنامة عن نظرة جديدة للطبيعة.. واكتشفت بعد ذلك أنَّ الطبيعة ليست مجموعة من الجبال والسهول والوديان والبحار ولكنها قصة الحياة الإنسانية على صورة أصيلة أبدعتها يد الله لتكون عظة ومتعة وعبرة..

ولو رجعنا البصر قليلاً في أسباب عبادة بعض الشعوب لمشاهد طبيعية خاصة لأدركنا أنّ في أعماق هذه الشعوب إدراكاً رائعاً للإبداع الإلهي في فنون الطبيعة وألوانها وفي المعاني التي ترمز إليها هذه الألوان والفنون.. من هنا ندرك وحدة الوجود وعظمة الخالق الذي أراد أن يجعل من هذه الوحدة العجيبة نبزاً لنا وأية وعلامة نهتدي بها في ظلمة شهواتنا إلى عتبته المقدسة، إلى بساط رحمته حيث لا نجد فيهما غير حقيقته وعنايته ودفقات بقائه السرمدية..

إنّ في وسعنا أن نعبد الله لا من خلال أنفسنا فحسب، بل من خلال كل ما أبدعته يده.. والزهور هي من أروع ما حبه يد الله للطبيعة التي بسطها لنا وجعلها في متناول أيدينا وأسماعنا وأذواقنا وعقولنا أيضاً..